حتى يكون يقيناً لا شك فيه!

تأليف

يونس على الحماقى

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ وآلهِ ومنِ اهتدى بهديهِ إلى يومِ الدينِ ، أما بعدُ؛

عنْ أبى هريرةَ-رضى اللهُ عنه- أنَّ النبىَ-صلى اللهُ عليه وسلمَ-قالَ: أكثروا ذكرَ هاذمِ اللذاتِ "الموتِ"[1]

وهذه صيغةٌ عجيبةٌ تسترعى الانتباهَ ، إذْ إننا لمْ نؤمرْ بمثلِ هذه الصيغةِ –صيغةِ الإكثارِ من الفعلِ-إلا فى ذكرِ اللهِ-تعالى-

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ الأحزاب: ٤١

وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ الأحزاب: ٣٥

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ-صلى اللهُ عليه وسلمَ-: أوصِنى، فقالَ له رسولُ اللهِ-صلى اللهُ عليه وسلمَ-: لا يزالُ لسانُك رطباً بذكرِ اللهِ.

فلا تملَّ من ذكرِ اللهِ، وهذا أمرٌ فى مَحِلِّهِ ، إذ ذكرُ اللهِ هو حياةُ القلوبِ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ الرعد: ٢٨

أما ذكرُ الموتِ فله شأنٌ آخرَ ، إذ هو يكدِّرُ على المرءِ صفوَ حياتِهِ، ولذا عبَّر النبىُّ-صلى اللهُ عليه وسلمَ-بقولِه: "أكثروا ذكرَ هاذمِ اللذاتِ..." أى: قاطعُها ومكدِّرُ صفوِها.

فكيفَ يستقيمُ هذا مَعَ حالِ غالبِ الناسِ الذينَ يريدونَ أنْ يُبعدوا عنْ أذهانِهم ذكرَ الموتِ ؟!

---

(1)رواه أحمد فى مسنده والترمذى والنسائى وابن ماجة فى سننهم وأبو حاتم بن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن عمرو الليثى عن أبى سلمة وأبى هريرة بأسانيد صحيحة على شرط الشيخين.

ذلكم الذى يبثُّ فى نفوسِهم الفزعَ والحزنَ ، ويُلقى على حياتِهم أكسيةَ الظلمةِ والكآبةِ ، ويستدرُّ من عيونِهم الدمعَ على ما فاتَ وماهو آتٍ!

وهذه الحالةُ –بكلِّ تأكيدٍ-ليست مرادةَ منْ أمرِ النبىِّ-صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-بالإكثارِ من الموتِ ، إذ أمرُهُ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-هو الخيرُ كلَّ الخيرِ ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾

والجوابُ عن هذا السؤالِ هو محورُ هذه الرسالةِ .

وأسألُ اللهَ-تعالى- أنْ يجزىَ خيرَ الجزاءِ منْ قامَ بالإنفاقِ عليها، إنه ولىُّ ذلك ومولاه.

يونس على الحماقى

إمام وخطيب مسجد الفتح بالدروتين

01094090127

حتى يكونَ يقيناً لا شكَّ فيهِ!

الموتُ حقٌّ ، وما منْ نفسٍ إلا وسيصيبُها الموتُ -شاءتْ أمْ أبتْ ،ذكرتْهُ أم نسيتْهُ-

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ (1)

وهذا -كما يقولُ أهلُ الأصولِ-من العمومِ الذى لا يدخلُهُ خصوصٌ أبداً ، فليس هناك استثناءٌ ، قال الله-تعالى- لنبيه وهو على قيدِ الحياةِ:﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ﴾

الزمر: ٣٠ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ٣٤ ﴾ الأنبياء: ٣٤

وهذا حقٌ لم يأخذْ درجةَ اليقينِ فى قلوبِ الناسِ ، فقد غلب حبُّ الحياةِ على القلوبِ ، فالمرءُ يرى ما يذكِّره بالموتِ كلَّ يومٍ ولا يتذكرُ أنه سيموتُ ، وكأن الموتَ الذى أصابَ الناسَ ويصيبهم كلَّ يومٍ لن يصيبَهُ!

حتى قال سيدُنا عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: لم أرَ يقيناً أشبهَ بالشكِّ كيقينِ الناسِ بالموتِ!

ومن هنا فإن أهلَ الإيمانِ يحولون-بكثرةِ ذكرهم للموتِ- الشكَّ إلى يقينٍ.

وليس المقصودُ بكثرةِ ذكرِ الموتِ كثرةَ تردادِ اسمِهِ على اللسانِ ، بل المقصودُ :

1-الاعتبارُ بكلِّ موقفٍ يمرُ بالمرءِ يذكرُهُ بالموتِ.

2-كثرةُ الترددِ على المشاهدِ التى تذكرُ بالموتِ.

وما أكثرَ المشاهدَ والمواقفَ التى تصرخُ فى وجهِ ابنِ آدمَ تذكرُهُ بالموتِ .

أولاً: المشاهد

1-القبور:

يقولُ النبيُّ-صلى الله عليه وسلم-:كنتُ قدْ نهيتُكم عنْ زيارةِ القبورِ ألا فزوروها فإنها تذكركم الموتَ".

---

(1)وردت فى ثلاثة مواضع من كتاب الله :فى آل عمران: ١٨٥ و الأنبياء: ٣٥ و العنكبوت: ٥٧

وتذكرُ الموتِ بزيارةِ القبورِ يفتقرُ إلى معرفةِ الزائرِ بنهجِ السلفِ فى زيارتِها .

يقولُ القرطبىُّ –رحمه الله-: "إذا دخلتَ المقابرَ سلِّمْ على أهلِها وقلْ: السلامُ عليكم أهلَ الديارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ ،وإنا إنْ شاءَ اللهُ بكم لاحقونَ ، نسألُ اللهَ لنا ولكم العافيةَ"

وخاطبهم بذلك خطابَ الحاضرينَ لا الغائبينَ.

قال السبكى-رحمه الله-:" دلت الأحاديثُ على أن السلامَ على الموتى كالسلامِ على الأحياءِ يُقدَّمُ فيه المبتدأُ على الخبرِ.

يعنى بالمبتدأِ : السلام، وبالخبرِ: عليكم، وأنْ يكونَ بـــ" الــ" أو بــ"التنوين".

كما يجوزُ فى السلامِ على الموتى : عليكم السلامُ بتقديمِ الخبرِ على المبتدأِ لحديثِ أبى جرىٍّ الهجينىِّ : أتيتُ النبىَّ-صلى الله عليه وسلم-فقلتُ: عليكَ السلامُ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: لا تقلْ عليكَ السلامُ فإن "عليكَ السلامُ "تحيةُ الموتى.

وهذا يعنى أن هذه الصيغةَ تختصُّ بالموتى ، وأما" السلامُ عليكم" فمشترك" أ.هـ[1]

فإذا وصلتَ إلى قبرِ ميتِكَ الذى تعرفُهُ فأتِهِ من تلقاءِ وجهِهِ فى زيارتِهِ كمخاطبتِهِ حياً، فلو خاطبتَهُ حياً لكانَ الأدبَ استقبالُه بوجهِهِ فكذلكَ ههنا .

وهنا أحضِر قلبَكَ واستحضِر بذهنِكَ وارجِعْ بذاكرتِكَ للوراءِ قليلاً ..

هذا الذى كانَ لكَ فى الدنيا صفيَّاً وخليلاً..

كان يمشى معكَ بخطواتٍ ثابتةٍ وئيدةٍ ...هاهو اليومَ قدْ تهدَّمتْ رجلاهُ!

كان يملؤُ الدنيا فى ناظِرَيْهِ ...هاهو اليومَ قدْ سالَتْ عيناهُ!

كان يُشجيكَ بحلاوةِ كلامِهِ ...هاهو اليومَ قدْ أكَلَ الدودُ لسانَهُ!

كان يضحكُ مِلءَ فيهِ ...هاهو اليومَ قدْ أبلى الترابُ أسنانَهُ !

تأملْ حالَ من مضى...

من بلغوا الآمالَ ،وجمعوا الأموالَ، كيف حالُهم الآنَ؟!! انقطعَتْ آمالُهم ، لم تُغنِ

---

(1)الدين الخالص-ج8-صــ85.

عنهم أموالُهم ، ترمَّلتْ نساؤُهم ، عاشَ فى ذلِّ اليتمِ أولادُهم ، نامَ على فُرُشِهم غيرُهم ، قدْ ذهبَتْ سُدىً دمعاتُهم ،ربَّى أولادَهم غيرُهم.

نظرتَ إلى قبورِهم؟!! الآنَ ارفعْ بصرَكَ إلى السماءِ...

لازالت الشمسُ تشرقُ ، لا زالت ترسلُ أشعتَها الهفافةَ تضئُ للناسِ حياتَهم وتبعثُ الدفءَ فى أبدانِهم..

مابرحَ الهواءُ ينسمُ لهم ويندى على أكبادِهم ..

ما انقطعَ ضوءُ النهارِ ولا سكونُ الليلِ ..

لازالت الدنيا هى الدنيا..

لازالت الحياةُ هى الحياةُ ، ما تغيرَ شئٌ، كلُّ الذى تغيَّر"هُم"..

كانوا أحياءً يظنون الدنيا مِلكَ أيمانِهم ، ستنتهى يومَ أنْ يموتوا، وهاهم قدْ ماتوا وما حدث شئٌ ، كانت الدنيا ولم يكونوا فيها ، وهاهى الدنيا وليسوا فيها..

نظرتَ إليهم الآنَ؟!! ...علمتَ حالَهم ؟!! أنتَ مثلهم .. خُلقتَ كما خُلقوا ..وتعيشُ الآنَ كما كانوا يعيشونَ ..مقدماتُك هى نفسُ مقدماتِهم..فحتماً ستكونُ نتيجتُك هى نفسُ نتيجتِهم!

وهذا أمرٌ بدهىٌّ يدركُهُ كلُّ مَنْ له عقلٌ يقظٌ وقلبٌ حىٌّ..

وللهِ درُّ قس بن ساعدة الإيادىّ حينَ قالَ:

فى الذاهبينَ الأولينَ مـن القـرونِ لنـــــا بصائر

لما رأيتُ مـوارداً للمـوتِ ليـس لـــــها مصادر

ورأيتُ قومى نحوها يمضى الأصاغرُ والأكابر

أيقنتُ أنى لا محالةَ حيثُ صار القومُ صـــــائر

2-الجنازاتُ التى نشيعُها كلَّ حينٍ:

قال النبىُّ-صلى اللهُ عليه وسلمَ-: "عودوا المريضَ واتْبعوا الجنائزَ تذكركم الآخرةَ"(1)

إن النعشَ الذى يحملُهم يناديكَ بلسانِ حالِهِ ويقولُ: يا ابن آدمَ ؛

انظرْ إلىَّ بعقلِك...أنــا الــمعَدُّ لحملِكَ

أنا نذيرُ المنايا...كم سار مثلى بمثلك

ومشهدُ الجنازةِ أبلغُ فى التذكيرِ بالموتِ من زيارةِ المقابرِ ، إذ الجسدُ الذى فى النعشِ كان منذُ قليلٍ مثلَنا يتمتع بالحياةِ ، ويا له من مشهدٍ مهيبٍ !!

جسدٌ كان منذ وقتٍ قصيرٍ يمشى على قدمَيْهِ والآنَ هو ملقىً على ظهرِهِ ..

جسدٌ كان يَحمِلُ ، والآنَ هو يُحمَلُ !!

كان أبو هريرةَ إذا رأى أحداً يَحمِلُ جنازةً يقولُ لها: امضِ إلى ربِك ، فإنا على أثرِك ماضونَ.

وكان ثابتُ البُنانىُّ يقولُ: "كنا نشهدُ الجنائزَ فلا نرى فيها إلا متلفعاً باكياً ، وذلك لأنهم كانوا يتذكرون جنازةَ أنفسِهم فلا يبكونَ على الميتِ ولكنْ على أنفسِهم"

3-الأرضُ التى نمشى عليها:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ المرسلات: ٢٥ ــ ٢٦

فكما جمعتنا على ظهرِها أحياءً ستجمعُنا فى بطنِها أمواتاً﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الأعراف: ٢٥

(١) رواه أحمدُ وابنُ حبانَ والبيهقىُّ عن أبى سعيدٍ الخدرىِّ.

فلا يغرنَّك مشيُك بقدميك على ظهرِها غداً ستكونُ جثةً هامدةً فى بطنها﴿ ۞ مِنۡهَا
خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ طه: ٥٥

إنَّ بيننا وبين الأرضِ التى نمشى عليها صلةً، فنحنُ وهى منْ جنسٍ واحدٍ ، هى من
ترابٍ ونحن كذلك من ترابٍ ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الروم: ٢٠

أنتَ تمشى على الأرضِ وأنتَ جزءٌ منها ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا
وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ نوح: ١٧ - ١٨

فإذا مشيتَ على الأرضِ فهوِّن منْ الوطءِ عليها بقدميكَ فلعلَّ الترابَ الذى تمشى عليهِ هو رُفاتُ آدمىٍّ !

إننا نهدمُ المقابرَ ولا نجدُ فيها شيئاً سوى عظامٍ مختلطةٍ بترابٍ يختلطُ بترابِ الأرضِ التى نمشى عليها..

يقولُ القرطبىُّ فى التذكرةِ:" ولقدْ كنتُ فى زمنِ الشبابِ أنا وغيرى ننقلُ الترابَ على الدوابِّ من مقبرةٍ عندنا تُسمى بمقبرةِ اليهودِ خارجَ قرطبةَ ، وقدْ اختلطَ—أى:
الترابُ-بعظامٍ من هناك إلى الذين يصنعون القرمدَ للشقفِ ، وقد رُوى عنْ علىِّ بنِ أبى طالبٍ-رضى اللهُ عنه-أنه أُتى بإناءٍ فيه ماءٌ ليشربَ منه فأخذَهُ بيدِهِ وقالَ:

اللهُ أعلمُ كم فيكَ من عينٍ كحيلٍ وخدٍ أسيلٍ"

فالإناءُ من ترابٍ ، والآدمىُّ إذا ماتَ صارَ تراباً ....فما يُدريكَ؟!!!

إن تاريخَ المقابرِ عندَنا يتعدَّى المائةَ سنة، فأين أجدادُنا قبلَ هذا التاريخِ؟! بل وأين الذين دفناهم من عشرينَ سنة، وهدمنا مقابرَهم وجددنا بناءَها ؟!

لقد صاروا تراباً فأين هذا الترابُ؟!

عفا اللهُ عن أبى العلاءِ المعرِّى، كان يقولُ:

صاحِ هذى قبورُنا تملأ الرحـــب فأين القبـــورُ من عهد عـــادِ
خفف الوطءَ ما أظـــــــــنُ أديمَ الأرض إلا من هـــذه الأجسادِ
سِرْ إن استطعتَ فى الهواءِ رويداً لا اختيالاً علــــــى رُفاتِ العبادِ
فقبيـــــحٌ بنا وإن قَدِمَ العهــــدُ هــــــوانُ الآبـــاء والأجدادِ

ثانياً :المواقف

1-النوم:

وهو أولُ آيةٍ من آياتِ اللهِ التى تذكرُ بالموتِ..

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾
الأنعام: ٦٠ - ٦١

فذكرَ اللهُ-عزوجل-وفاتينِ:

الأولى: هى الوفاةُ الصغرى –وهى النومُ- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ أى: حينَ النومِ إذْ غالبُهُ وأصلُهُ بالليل، ثم ذكرَ الوفاةَ الكبرى بقولِهِ:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

ولذا كان النبىُّ-صلى الله عليه وسلم-يذكرُ الموتَ إذا وضعَ رأْسَهُ لينامَ ، فكان يقولُ: "باسمِك اللهم أموتُ وأحيا".

وكان إذا استيقظَ من نومِهِ يقولُ:" الحمدُ للهِ الذى أحيانا بعدَ ما أماتنا وإليه النشورُ".

وكان يقولُ:"الحمدُ للهِ الذى ردَّ علىَّ روحى وعافانى فى بدنى وأَذِنَ لى فى ذكرِه".

النومُ نقصٌ من الحياةِ ، إذ به ينفصلُ المرءُ انفصالاً جزئياً عن الحياةِ ، ولذا نفاهُ النبىُّ-صلى اللهُ عليه وسلمَ-عنْ أهلِ الجنةِ ، قيلَ له:يا رسولَ اللهِ ، أينامُ أهلُ الجنةِ؟**!** قال:**"** لا، النومُ أخو الموتِ ، والجنةُ لا موتَ فيها**"**

2-غروبُ الشمسِ:

إذ بغروبِها يتذكرُ المرءُ انتهاءَ الحياةِ الدنيا، وحياتُك هى يومُك، وغدٌ لا يعلمُهُ إلا اللهُ، ومِن ثَمَّ كان رسولُ اللهِ-صلى اللهُ عليه وسلمَ-يقولُ فى أذكارِ المساءِ :**"**أمسينا وأمسى الملكُ للهِ والحمدُ للهِ لا شريكَ لَهُ لا إلهَ إلا هو إليه المصيرُ**"**

روى البخارىُّ فى صحيحِهِ من حديثِ ابنِ عمرَ أنَّ النبى-صلى اللهُ عليه وسلمَ-قالَ له: **"** إذا أصبحتَ فلا تُحدِّثْ نفسَك بالمساءِ ، وإذا أمسيتَ فلا تُحدِّثْ نفسَك بالصباحِ، وخذْ منْ حياتِك لموتِك، ومنْ صحتِكَ لسقمِكَ فإنك يا عبدَ اللهِ لا تدرى ما اسمُكَ غداً**"**

قالَ الحسنُ البصرىُّ: الموتُ معقودٌ بنواصِيكم والدنيا تُطوى من ورائِكم "

فرحِمَ اللهُ عبداً عَمِلَ لما بعدَ الموتِ، ورحِمَ اللهُ عبداً نظرَ لنفسِهِ قبلَ نزولِ الموتِ.

